المبحث الثاني:

الرصيد الخلقي لصلاح الدين

تميزت شخصية السلطان صلاح الدين الأيوبي برصيد أخلاقي كبير ساعده على تحقيق أهدافه العظيمة والتي من أهمها؛ الشجاعة، والكرم، والوفاء والتسامح، والحلم، والعدل والعفو، والمروءة، وشدة لجوئه إلى الله، ومحبته للجهاد، وصبره واحتسابه، وحرصه على العلم، والتواضع.. إلخ. وإليكم أظهر هذه الصفات وأميز هذه الأخلاق:

أولاً: تقواه وعبادته:

قال تعالى:**{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا}** (الأعراف،: 96) وتقوى الله وتحقيق العبودية الشاملة لله تحفظ العبد من كيد الأعداء ومكرهم قال تعالى:**{وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}** (آل عمران، 120)، ولا شك أن تقوى الله وعبادته والخشية منه، وحسن الظن به والاعتماد عليه هي أول ما يجب أن يمتاز به المسلم، وأفضل ما ينبغي أن يتصف به، لأن ذلك يجعل المسلم أسداً كاسراً لا يعرف الهزيمة، وبطلاً مقداماً لا يهاب المنية، وشجاعاً كراراً لا يخشى جباراً، ولا يهاب عدواً، وهذه السمة من الإيمان والعبادة قد تحققت في القائد البطل صلاح الدين [1]، وإليكم ما كتبه القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد الذي عاصره واجتمع به وعرف أخباره، فحدثنا عن ما رأى:

1- **عقيدته:**

وكان رحمه الله - حسن العقيدة، كثير الذكّر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، فتحصَّل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التَّشبيه، غير مارق سهم النظَّر فيها إلى التَّعطيل والتَّمويه، جارية على نمط الاستقامة، موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء، وكان - رحمه الله - قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدّين النّيسابوري - رحمه الله - عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدة حرصه عليها يعلمَّها الصَّغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصّغر، ورأيته وهو يأخذ عليهم وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه، رحمه الله.

2- **الصلاة:**

(1) صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحررّ القدس، علوان ص 139.

وأما الصلاة: فإنه - رحمه الله - كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلىّ إلا جماعة، وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده ويكلّف نفسه القيام، ويصلىّ جماعة، وكان يواظب على السنّن الرَّواتب، وكان له ركعات يصليها إذا استيقظ بوقت في الليل، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبُّح، وما كان يترك الصُّلاة ما دام عقله عليه، ولقد رأيته - قَدس الله روحه - يصلّي في مرضه الذي مات فيه قائماً، وما ترك الصلاة إلا في أيام الثلاثة التي تغيّب فيها ذهنه وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلّى [1].

3- الزكاة:

وأما الزكاة، فإنه مات - رحمه الله تعالى - ولم يحفظ ما وجبت به عليه من الزكاة وأما صدقة النَّقل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال، فإنه مَلَك ما ملك ومات ولم يخلّف في خزانته من الذَّهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجراماً واحداً ذهباً صُورياً، ولم يخلفّ مُلكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك، رحمة الله عليه.

4- صوم رمضان:

فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعّددة، وكان القاضي الفاضل قد تولّى ثبت تلك الأيام، وشرع - رحمه الله - في قضاء تلك الفوائت ذلك بالقدس الشَّريف في السّنة التي توفي فيها، وواظب على الصَّوم مقداراً زائداً على شهر، فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراض ومُلازمة الجهاد عن قضائها وكان الصَّوم لا يوافق مزاجه، فألهمه الله تعالى الصَّوم بقضاء الفوائت [2] فكان يصوم وأنا أُثبتُ الأيام التي يصومها، لأن القاضي كان غائباً، والطبيب يلومه وهو لا يسمع، ويقول: (لا أعلم ما يكون) فكأنه كان مُلهماً ببراءة ذمته - رحمة الله عليه - ولم يزل حتى قضى ما كان عليه[3].

5- وأما الحج:

فإنه كان لم يزل عازماً عليه، وناوياً له، سيما في العام الذي توفي فيه، فإنه صَّمم العزم عليه، وأمر بالتأهب وعُملت الرّفادة ولم يبق إلا المسير، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت، وفراغ اليد عما يليق بأمثاله، فأخَّره إلى العام المستقبل، فقضى الله ما

---

(1) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي - ابن شداد ص 58.
(2) المصدر نفسه ص 59.
(3) المصدر نفسه ص 59.

قضى، وهذا شيء اشترك في العلم به الخاصُّ والعام [1].

6- سماعه للقرآن الكريم:

وكان رحمه الله - يحب سماع القرآن العظيم، حتى أنه كان يستخير، إمامه، ويشترط أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم، متقناً لحفظه وكان يستقرئ من يحضره في الليل وهو في بُرجه [2] - الجزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع وكان يستقرئ - في مجلسه العام - من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته فقَّربه، وجعل له حظاً من خاصّ طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جُزءاً من مزرعة، وكان - رحمه الله تعالى - رقيق القلب، غزير الدمعة، إذا سمع القرآن يخشع قلبُه، وتدمع عينه في معظم أوقاته [3].

7- سماعه للحديث الشريف:

كان - رحمه الله تعالى - شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان مّمن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه، والمختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له؛ وإن كان ذلك الشيخ مَّمن لا يطرق أبواب السَّلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سَعى إليه وسمع عليه، تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية - حرسها الله تعالى - وروى عنه أحاديث كثيرة، وكان رحمه الله - يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، وكان يستحضرُني في خلوته، ويحضر شيئاً من كتب الحديث، ويقرأ هو، فإذا مّر بحديث فيه عبرة رقَّ قلبه ودمعت عينه [4].

8- تعظيمه لشعائر الدّين:

وكان - رحمة الله عليه - كثير التعظيم لشعائر الدين، قائلاً ببعث الأجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنّة والمسيء بالنار، مصدّقاً بجميع ما وردت به الشرائع، منشرحاً بذلك صدره مبغضاً للفلاسقة والمعطّلة، والدَّهرية ومن يعاند الشّريعة. ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر، بقتل شاب نشأ كان يقال له السَّهروردي، قيل عنه إنه كان معانداً للشرائع ومبُطلاً وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرَّف السُّلطان به، فأمر بقتله وصلبه أياماً فقتله.

---

(1) سيرة الناصر صلاح الدين - لابن شداد ص 59.
(2) المصدر نفسه ص 59.
(3) المصدر نفسه ص 60.
(4) المصدر نفسه ص 61.

9- حسن ظنه بالله :

وقال ابن شداد: وكان - قدس الله روحه - حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، عظيم الإنابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه: وذلك أن الفرنج - خذلهم الله - كانوا نازلين ببيت نوبة، وهو موضع قريب من القدس الشريف - حرسها الله تعالى - يكون بينها بعض مرحلة وكان السلطان بالقُدس، وقد أقام يَزَكاً [1] على العدو محيطاً به، وقد سير إليهم الجواسيس والمخُبرين، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصُّعود إلى القدس ومحاصرته، وترتيب القتال عليه، واشتد خوف المسلمين بسبب ذلك فاستحضر الأمراء وعرَّفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة، وشاورهم في الإقامة بالقدس، فأتوا بمجاملة باطنها غيُر ظاهرها، وأصّر الجميع أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه، فإنها مخاطرة بالإسلام.

وذكروا أنهم يقيمون هم، ويخرج هو - رحمه الله - بطائفة من العسكر يكون حول العدوّ كما كان الحال بعكّا، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدَّفع عنه وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصُّر على أن يقيم بنفسه، علماً منه إن لم يُقم ما يقيم أحد. فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من عندهم من أخبر أنهم لايقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذين يأتمرون بأمره، فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة، وضاق صدره، وتقسّم فكره، واشتّدت فكرته. ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة - وكان الزمان شتاء، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى، ونحن نُقسّم أقساماً ونرتَّب على كل قسم مقتضاه، حتى أخذني الإشفاق عليه، والخوف على مزاجه فإنه كان يغلب عليه اليُبس[2]، فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة، فقال رحمه الله -: لعلك جاءك النوم؟ ثم نهض، فما وصلت إلى بيتي وأخذت لبعض شأني إلا وأذن المؤذن، وطلع الصبح، وكنت أصلّي معه الصبح في معظم الوقت، فدخلت عليه، وهو يمُّر الماء على أطرافه، فقال: ما أخذني النوم أصلاً، فقلت: قد علمتُ، فقال: من أين؟ فقلت: لأني ما نمت، وما بقي وقت للنوم، ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه، فقلت له: قد وقع لي واقع وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى، فقال: وما هو؟ فقلت له: الإخلاد إلى الله تعالى والإنابة إليه، والاعتماد في كشف هذه الغُمَّة عليه فقال: وكيف نصنع؟ فقلت: اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرَّواح، ويصلي على العادة وبالأقصى، موضع مَسْر النبي

(1) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين 61. يَزكاً: طلائع.
(2) يبدو أن صلاح الدين كان يعاني من ارتفاع ضغط الدم الشرياني.

ﷺ ويقدّم المولى التصدُّق بشيء خفية على يد من يَثق به ويصلّي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة، ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح، وتقول في باطنك: يا إلهي، قد انقطعت أسبابي الأرضية في نُصرة دينك، ولم يبقَ إلا الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل، فإن الله أكرم من أن يخيّب قصدك، ففعل ذلك كله، وصليت إلى جانبه على العادة، وصلّى الركعتين بين الأذان والإقامة، ورأيته ساجداً، ودموعه تتقاطر على شيبته وعلى سّجادته، ولا أسمع ما يقول. فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جُردْيك - وكان على اليَزَك - يُخبر فيها أن الفرنج متخبطون، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء، ووقفوا إلى قائم الظهيرة، ثم عادوا إلى خيامهم. وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك. ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا، فذهبت الفرنسيّة [1] إلى أنهم لابّد لهم من محاصرة القدس، وذهب الانكتار [2] وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم في هذا الجبل مع عدْم المياه فإن السُّلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه وأنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهر الخيل، وأنهم قد نصُّوا على عشرة أنفس منهم وحكّموهم فبأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم ولما كانت بُكرة الإثنين جاء البشير يخُبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرَّملة، فهذا ما شاهدته من آثار استنابته وإخلاده إلى الله تعالى، رحمه الله[3].

ثانياً: عدله:

قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} (النحل، آية: 90) وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} (النساء: 135). وقد كانت صفة العدل من أبرز صفات صلاح الدين الأيوبي القياديَة، وكان يؤمن بأن العدل أحد نواميس الله في كونه وكان يقينه بأن العدل ثمرة من ثمرات الإيمان وكان تعلم ذلك من أستاذه الكبير الذي جّدد معلم العدل وسار عليه صلاح الدين السلطان نور الدين محمود زنكي، فقد كان صلاح الدين عادلاً، ناصراً للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح

(1) أي الصَّليبيون من الفرنسيين، الذين تألفت منهم غالباً الحملتان الصَّليبيتان الأولى والثانية.
(2) المقصود بالانكتار الملك ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلتر.
(3) سيرة السلطان صلاح الدين لابن شداد ص 64.

الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة، وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً، على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لما يعرض عليه من القصص، كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل، ولم يردّ قاصداً للحوادث والحكومات، ثم يجلس مع الكاتب ساعة، إما في الليل أو النهار، ويوقع على كل قصة بما يُطلق الله على قلبه، ولم يردّ قاصداً أبداً ولا منتحلاً وطالب حاجة، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة، ولقد كان رؤوفاً بالرعيّة، ناصراً للدين، مواظباً على تلاوة القرآن العزيز، عالماً بما فيه، عاملاً به، لا يعدوه أبداً، رحمة الله عليه، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته، وكشف ظلامته، وأخذ قصته، ولقد اشتغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له: ابن زُهير على تقي الدين - ابن أخيه - فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم، فما خلصَّه إلى أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول أنه وكّل القاضي أبا القاسم أمين الدين - قاضي حماة - في المخاصمة والمنازعة، فحضر الشاهدان، وأقاما الشهادة بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة، وإنكار الخصم[1]، قال القاضي ابن شداد. فلما ثبتت الوكالة أمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه - وكان من خواص السلطان - رحمه الله - ثم جرت المحاكمة بينهما، واتجهت اليمين على تقي الدّين، وانقضى المجلس على ذلك، وقطعنا عن إحضاره دخول الليل، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه، وأعظمهم عنده، ولكنه لم يُحابه في الحق [2].

ومما يدل على عدله أنه كان يقف بجانب خصمه أمام القضاء دون أن يرى في ذلك حرجاً أو غضاضة لأن الحق في نظره أحق أن يتّبع، وقد حدث أن ادعى تاجر يدعى (عمر الخلاطي) على صلاح الدين أنه أخذ منه أحد مماليكه ويدعى "سنقر" واستولى على ما كان لهذا المملوك من ثروة طائلة بدون وجه حق، وعندما تقدم التاجر المدعي بظلامته إلى القاضي ابن شداد، أظهر صلاح الدين حلماً كبيراً ورضي أن يقف موقف الخصم من صاحب الدعوى، وأحضر كلٌّ من الطرفين من لديه من شهود وما لديه من أدلة يثبت بها رأيه، حتى اتضح في النهاية - عند القاضي كذب الرجل وادعاءه الباطل على صلاح الدين ومع كل هذا رفض صلاح الدين أن يترك المدعي يخرج من عنده خائباً فأمر له بخلعة ومبلغ من المال ليدل على كرمه في مواضع المؤاخذة مع القدرة

(1) سيرة السلطان الناصر لابن شداد ص 66.
(2) المصدر نفسه ص 66.

.[1]

ومما يدل على عدله سهره على مصالح الرعية إزالته بعض المكوس والضرائب تخفيفاً عن الناس، ورفعاً للظلم عن كواهلهم، وقد ذكر ابن جبير من مناقب صلاح الدين وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا وأنه أزال كثيراً من المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على الناس على كل ما يباع ويشترى مما دقّ أو جلّ، حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل المكس، فألغى صلاح الدين هذا كله [2]، وقد كانت هناك ضريبة قدرها سبعة دنانير ونصف تفرض على كل حاج في طريقه إلى الحجاز لتعمير مكة والمدينة، ومساعدة الناس هناك وقد اشتطّ الفاطميون في جمع هذه الضرائب، ومن يعجز عن دفعها يعذب عذاباً أليماً، ولكن صلاح الدين ألغى ذلك المكس، واستعاض عنه معونة مالية تعادل قيمة ما يؤخذ من الحجاج تدفع كل عام لأهل الحجاز، وبذلك أراح الحجاج من عنت الجباة، ولاسيما أن نسبة كبيرة منهم كانوا فقراء لايستطيعون دفع ما يؤخذ منهم، فكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطباً أليما [3]، إن العدل أشرف أوصاف الملك وأقوم لدولته، لأنه يبعث على الطاعة ويدعو إلى الألفة، وبه تصلح الأعمال وتنمي الأموال وتنتعش الرعية وتكمل المزيَّة وقد ندب الله عز وجل الخلق إليه وحثهم عليه [4].

ثالثاً: شجاعته:

إن الشجاعة من أحمد الأوصاف التي يلزم الملك أن يتصف بها ضرورة وأن تكون له طبعاً فيتطبع بها ليحسم بهيبته مواد الأطماع المتعلقة بقلوب نظرائه، ويحصل منه حماية البيضة ورعاية المملكة والذب عن الرعية [5]، ولقد كان صلاح الدين - من عظماء الشجعان، قويَّ النفس، شديد البأس عظيم الثبات، لا يهوله أمر، ولقد رأيته - رحمه الله - مرابطاً في مقابلة عَّدة عظيمة من الفرنج، وثُجُدُهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيّف وسبعون مركباً على عكّا وأنا أعّدها من بعده صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلا قوة نفس، ولقد كان - رحمه الله - يعطي دستوراً في أوائل ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدّتهم الكثيرة، يقول ابن شّداد: وقد سألت باليان بن بارزان، وهو من كبار ملوك

(1) المصدر نفسه ص 69، صلاح الدين، علوان ص 143.
(2) رحلة ابن جبير نقلاً عن صلاح الدين، علوان ص 143.
(3) المصدر نفسه، صلاح الدين صلا 144.
(4) النهج المسلوك في سياسة الملوك ص 103.
(5) المصدر نفسه ص 103.

الساحل - وهو جالس بين يديه، رحمه الله، يوم انعقاد الصلح - عن عِدتّهم، فقال الترجمان عنه: إنه يقول: كنت وصاحب صَيْدا - وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم - قاصدين عسكرنا من صُوْر، فلّما أشرفنا عليه تحازرناه، فحزره هو بخمسمائة ألف، وحزرتهم أنا بستمائة ألف، أو قال عكس ذلك، فقلتُ: فكم هلك منهم؟ فقال: أما بالقتل فقريب من مائة ألف، وأما بالموت والغرق فلا نعلم، وما رجع من هذا العالم إلا الأقل، وكان لابدّ له من أن يطوف حول العدوّ في كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم، وكان صلاح الدين، إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفيّن ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتّب الأطلاب، ويأمرهم بالتقدّم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدوّ ويجاوره [1].

قال ابن شّداد: ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين وذلك أني قلت له: قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشَّريفة ولم يُثقل أنه سمع بين الصفّين، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً، فأذن في ذلك، فأحضر جزءٌ وهناك أحضر من له به سماع، فقُرئ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفّين، ونمشي تارة، ونقف أخرى، وما رأيته استكثر العدو أصلاً، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير، يذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدَّة ولا غضب يعتريه، رحمه الله، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكّا، حتى القلب ورجاله، ووقع الكُوس[2] والعَلَم [3] وهو - رضي الله عنه - ثابت القدم في نفر يسير قد انحاز إلى الجيل يجمع الناس ويردَّهم ويخجّلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى نُصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس [4]، ولم يزل مصابراً لهم، وهم في العدة الوافرة، إلى أن ظهر له ضعفُ المسلمين، فصالح وهو مسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النُّجد، ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في الصُّلح، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية والأقدار ما كان في مكنونها [5].

رابعاً: كرمه:

والكرم لباب الأخلاق الفاضلة، ومدارج الفضيلة وُصِفَت الأخلاق به وشرفت

---

(1) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين لابن شداد ص 73.
(2) الكُوس: صوجات من نحاس شبه الترس الصغير.
(3) كان العلم السلطاني الخاص بصلاح الدين أصفر وفي وسطه رسُم نسر أحمر.
(4) المصدر نفسه.
(5) سيرة الناصر صلاح الدين، لابن شداد ص 74.

بالانتساب إليه من باب إضافة الصّفة للموصوف، فكُلُّ شيء يشرف في بابه يوصف به [1]، وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ: أحسن النَّاس، وأجود الناس، وأشجع النَّاس[2]، وعن جابر رضي الله عنه قال: ما سئل النبي ﷺ عن شيء - قَطُّ. فقال: لا [3]. وقال الشافعي:

وإن كثرت عيوبك في البرايا ::: وسّرك أن يكون لها غِطاء
تستر بالسَّخَاء فكل عَيْبٍ ::: يُغَطيه، كما قيل السَّخاء [4]

ولقد كان كرم السلطان صلاح الدين الأيوبي أظهر من أن يُسطّر، وأشهر من أن يُذكر، لكن نُنَبِّه عليه جملة، وذلك أنه مَلَكَ ما مَلَك ومات، ولم يوجد في خزائنه من الفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرية، ومن الذهب إلا جُرم واحدي صُوْري [5] وقد اشتهر صلاح الدين بالكرم ووزع ما احتوته قصور الفاطميين من جواهر وأموال على أمرائه وأصحابه، ولم يحتفظ لنفسه بشيء، وكان يهب الأقاليم، فعندما فتح آمد طلبها منه قرأ أرسلان، فأعطاها إياه [6]. يُعطي في وقت الشدة كما يُعطي في وقت السعة. وقال مرة وهو يُعبِّر عن كرمه: والله لو وُهِبَتْ الدنيا للقاصد الآمل، لما كنت استكثرها له، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي، لما كان عوضاً مما أراقه من حُرّ ماء وجهه في استمناحه إياي [7].

وكان من شدة كرمه: أنه إذا علم أن في خزائنه مالاً، لا يستطيب تلك الليلة حتى يفّرق هذا المال جوداً، وإذا منح إنساناً مالاً ثم قيل له إن هذا القدر لا يكفيه زاده الضعف [8] ولا يرى شيخاً إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه، وما أُحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على والديه، وجبر قلبه ومصابه، وأعطاه، وإن كان له من أهله كبيرة يعتمد عليه سلّمه إليه، وإلا أبقى له من الخير ما يكفي حاجته، وسلمّه إلى من يعتني بتربيته ويكفلها.

وقد وصف العماد الأصفهاني كرمه فقال: كان بإخراج ما يدخل من الأموال في

(1) الأخلاق بين الطبع والتطبيع ص 157.
(2) البخاري رقم 3040.
(3) البخاري رقم 6034.
(4) الأخلاق بين الطبع والتطبيع ص 159.
(5) سيرة الناصر صلاح الدين لابن شداد ص 70.
(6) سيرة الناصر صلاح الدين ص 70.
(7) تاريخ الأيوبيين في مصر، محمد سهيل طقوش ص 221.
(8) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 221.

المكرمات والغرامات مغرماً. وكان يجود بالمال قبل الحصول ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، فإذا عرف بالوصول حمل، وقع عليه، بأضعافه، ولاجيه أحد بالرد إذا سأله، بل يلطف له كأنه استمهله ويقول ما عندنا شيء الساعة [1]. ويعطي فوق ما يؤمّل الطالب، ويبسط وجهه للمعطي بسط من لم يعطه شيئاً [2]، وقد قُدّر ما وهبه من الخيل للحاضرين معه في الجهاد مدة ثلاث سنين، منذ أن نزل الفرنج على عكا في رجب سنة 585هـ إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة 588هـ، باثني عشر ألف رأس من حصان وحجر [3]، وإكديش طمر[4]. ويعلقّ ابن شداد على ذلك بقوله: ومن شاهد عطاياه يستقل هذا القدر. هذا بالإضافة إلى ما كان يطلقه من المال من أثمان الخيل المصابة في القتال؛ لأنه ما عُقر في سبيل الله فرس أو جُرح إلا وعوَّض مالكه بمثله، ولم يكن له فرس يركبه غلا وهو موهوب أو موعود به، وصاحبه ملازم في طلبه [5]. وقد توفي ولم يحفظ عنده ما يجب فيه الزكاة؛ لأن صدقة التطوع استنزفت جميع ما ملكه من الأموال. وقد ملك ما ملك ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً، ودينار واحداً ذهباً، ولم يخلف داراً ولا عقاراً، ولابستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئاً من أنواع الأملاك وهذا دليل واضح على شدة كرمه [6] وقال القاضي ابن شداد: وسمعت منه يوماً يقول في معرض حديث جرى: يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كمن ينظر في التُّراب، فكأنه أراد بذلك نفسه [7].

خامساً: اهتمامه بالجهاد:

كان صلاح الدين شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد لصدق وبرّ في يمينه، ولقد كان الجهاد وحبّه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا على من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله

(1) الفتح القسي في الفتح القدسي ص 629.
(2) سيرة السلطان الناصر ص 49 لابن شداد.
(3) حجر: الأنثى من الخيل.
(4) الطمر: الفرس الجواد الطويل القوائم الخفيف أو المستعد للعدو.
(5) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 222.
(6) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 222.
(7) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ص 71.

أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه [1]، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريح على مرج عكا، فلو لم يكن من البرج وإلا قتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً، وكان الرّجل إذا أراد يتقرب إليه يحثّه على الجهاد أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد، ولقد ألّف له كتب عّدة في الجهاد.

قال ابن شداد: وأنا ممّن جمع له فيه كتاباً جمعتُ فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث رُوي فيه، وشرحتُ غريبها؛ وكان كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل، وقال ولأحكين عنه ما سمعته منه: وذلك أنه كان قد أخذ كوكب، في ذي القعدة، سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وأعطى العساكر دستوراً، وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر وكان مقّدمه أخاه الملك العادل فسار معه ليودّعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف وسرنا في خدمته، ولما صلّى العيد في القدس وقع له أنه يمضي معهم إلى عَسْقَلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق السّاحل يتفقد البلاد السّاحلية إلى عكّا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لا يفعل، فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عّدة يسيرة، والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت وودَّع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا في خدمته على السّاحل طالبين عكّا، وكان الزمان شتاءً عظيماً والبحر هائجاً هيجاناً شديداً، وموجه كالجبال كما قال الله تعالى وكنت حديثَ عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خُيِّل إلي أنني لو قال لي قائل إن جُزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا، لما كنت أفعل واستسخفت رأي من ركب البحر رجاءً لكسب دينار أو درهم، واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتمّوجه.

فبينما أنا في ذلك إذ التفت إلي رحمه الله وقال: أما أحكي لك شيئاً؟ قلت: بلى قال: في نفسي؛ أنه متى يسَّر الله تعالى فتح بقية السّاحل قسَّمتُ البلاد، وأوصيت وودَّعتُ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبّعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت. فعظمُ وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي، وقلت له: ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى، ولا أقوى نيّة منه في نُصرة دين الله. فقال: وكيف؟ فقلت: أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله، وأما نُصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم... ثم قلت ما هذه إلا نية جميلة، ولكن المولى يُسيِّر في البحر

(1) المصدر نفسه ص 76.

العساكر، وهو سُور الإسلام ومنعته لا ينبغي لـه أن يخاطر بنفسه. فقال: أنا أستفتيك: ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله. فقال غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات [1].

ومن رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين وهو بالشام يريد الجهاد وطرد العدو من ديار المسلمين، ولكنّ أموراً عاقت صلاح الدين عن المبادرة إلى الجهاد فتألم السلطان لذلك ألماً شديداً، فكتب إليه القاضي الفاضل يخفف عنه وَقْعَ هذا الألم، ومما كتبه إليه: وأما تأسف المولى على أوقات ينقضي عاطلها من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، ويجّدد العوائق التي لا يوُصل إلى آخر حبلها فللمولى نيّة رشده. أو ليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لا يَسْأل الفاعل عن تمام فِعْله لأنه غير مقدور لـه، ولكن عن النية لأنَّها محلُ تكليفِ الطاعةٍ، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد وتنظيف الطُّرُق إلى المداد فهو في طاعة قد امتنَّ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أصل في نُجْح موعدها، والثواب على قدر مشقته، وإنما عَظُم الحج لأجل جهده وبعد شُقته؛ ولو أنَّ المولى فتح الفتوح العظام في أقلّ الأيام؛ وفصل القضية بين أهل الإسلام، وأعداء الإسلام؛ لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت، وصحائف البِّر المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت [2].

سادساً: حلمه:

فالحلم آية حسن الخلق، وعنوان عُلُوّ الهمة، فهو من أشرف الأخلاق، وأحقّها بذوي الألباب، لما جعل الله فيه من الطُّمأنينة، والسَّكينة، والحلاوة وسلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد ورفعة النفس عن تشفيها بالانتقام؛ فلا ينبل الرَّجلُ حتى يكون متخلقاً بهذا الخلق العظيم [3] قال تعالى:**{خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَـاهِلِينَ}** (الأعراف: 199).

وقال الشاعر:

صـــفوح عـــن الإجـــرام كأنـــه ::: من العفو لم يعرف مـــن النـــاس مجرمـــاً
ولـــيس يبـــالي أن يكـــون بـــه الأذى ::: إذا ما الأذى لم يغش بالكره مســـلماً [4]

فقد كان السلطان صلاح الدين الأيوبي حليماً كثيراً ما يعفو عن أصحاب الذنوب،

---

(1) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ص 79.
(2) بيت المقدس والمسجد الأقصى، محمد سُرّاب ص 112.
(3) الأخلاق بين الطبع والتطبع ص 138.
(4) المصدر نفسه ص 140.

حسن الخلق صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموزه - أي حذاء - فأخطأته ووصلت إلى السلطان ووقعت بالقرب منه فالتفت إلى الجهة الأخرى يتغافل عنها [1]، وقال القاضي شهاب الدين: نفرت بغلتي يوماً من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت ركبته حتى أقلقته من الوجع وهو يبتسم، وكذلك سرق من خزانته كيسان من الذهب المصري وأبدلا بكيسين من الفلوس فلم يعمل للمباشرين سوى صرفهم [2]، قال القاضي ابن شداد: ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكّا، وكان من عادته أن يركب في وقت الركوب، ثم ينزل، فيُمدُّ الطعام، ويأكل مع الناس ثم ينهض إلى خيمة خاصه له ينام فيها، ثم يستيقظ من منامه، ويصليّ، ويجلس خلوة وأنا في خدمته، نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه، ولقد قرأ عليَّ كتاباً مختصراً لسليم الرّازي [3]، يشتمل على الأرباع الأربعة في الفقه، فنزل يوماً على عادته، ومُدَّ الطعام بين يديه، ثم عزم على النهوض، فقيل له: إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد إلى الجلوس. وقال: نصليَّ وننام ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أُخلي المكان إلا ممّن لزم، فتقّدم إليه مملوك كبير محترم عنده، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجران، أخّرها ساعة، فلم يفعل، وقّدم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده، وفتحها بحيث يقرأها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه فقال: رجل مُستحق فقال: يوّقع له المولى، ها هي. فقال: ليست الدّواة حاضرة الآن، وكان جالساً في باب الخَرْكاه [4] بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها، والدَّواة في صدرها، فقال له المُخاطب: هذه الدواة في صدر الخَرْكَاه! وليس لهذا المعنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير، فالتفت فرأى الدَّواة، فقال: والله لقد صَدَق. ثم امتّد على يده اليسرى، ومّد يده اليمنى فأحضرها، ووقع له، فقلت: قال الله تعالى في نبيه ﷺ :**{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}** (القلم: 4) وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق، فقال: ما ضَرَّنا شيء، قضينا حاجته وحصل الثواب ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الإحسان والحلم والله لا يضيع أجر المحسنين[5].

---

(1) الموسوعة الشاملة (449/24).
(2) الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (449/24).
(3) سيرة الناصر صلاح الدين ص 85.
(4) الخَرْكَاه: الخيمة الكبيرة الفارسية أو نوع من الخيام.
(5) سيرة الناصر صلاح الدين ص 86.

لقد كان صلاح الدين يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول، وهذه حكاية يندر أن يُسطر مثلها: وذلك أنه كان قد اتجه أحد ملوك الإفرنج - خذلهم الله بيافا، فإن العسكر كان قد رحل عنهم، وبَعُدَ وتراجع إلى النّطرون، وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجّد وثلاث معتادة، وجرد العسكر ومضى إلى قيسارية يتلقّى نجدتهم، عساه يبلغ منها غرضاً، وعلم الإفرنج الذين كانوا بيافاً ذلك، وكان بها الانكتار [1] ومعه جماعة، فجَّهز معظم من كان عنده في الرّكب إلى قيسارية، خشية على النجدة أن يتم عليها أمر، وبقي الانكتار في نفر يسير لعلمهم ببعده عنهم وبُعد العسكر، ولما وصل - صلاح الدين - إلى قَيْسَارِيَّة، ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد واحتمت به، وعلم أنه ما ينال منهم غرضه، سرى من ليلته من أول الليل إلى آخره حتى أتى يافا صباحاً، والأنكتار في سبعة عشر فارساً وتقدير ثلاثمائة راجل، نازلاً خارج البلد في خيمة له، فصبَّحه العسكر صباحاً، فركب الملعون، وكان شجاعاً باسلاً صاحب رأي في الحرب، وثبت بين يدي العسكر، ولم يدخلها البلد فاستدار العسكر الإسلامي بهم إلا من جهة البلد، وتعبّى العسكر تعبية القتال. وأمر السُّلطان العسكر بالحملة انتهاز الفرصة، فأجابه بعض الأكراد الأمراء بكلام فيه خشونة، حاصله، تعتّبُ، لعدم التوفير في إقطاعه، فعطف عنان فرسه كالمغْضبَ، لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليوم شيئاً وتركهم وانصرف راجعاً، وأمر بخيمته التي كانت منصوبة أن قُلعت، وانقضّ الناس عن العدوّ، متيقّنين أن السلطان في ذلك اليوم ربما صلب وقتل جماعة... ولم يزل السلطان - سائراً حتى نزل بيازور وهي مرحلة لطيفة، فضرُبت له خيمة لطيفة هنالك، ونزل بها، ونزل العسكر في منازلهم تحت صايوانات [2]، لطيفة كما جرت العادة في مثل ذلك الوقت، وما من الأمراء إلا من يرعد خيفة، ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه. قال: ولم تحدّثني نفسي بالدخول عليه خيفة حتى استدعاني. قال: فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة، فقال: اطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً. قال: فسُرّي عني ما كنت أجده، وطلبتُ الأمراء، فحضروا وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطُّمأنينة والأمن والسَّرور، وانصرفوا عنه على عزم الرحيل، كأن يجر شيءٌ أصلاً [3]، ولم يكن حلمه - رحمه الله - قاصراً على

(1) الانكتار: المقصود الملك ريتشارد قلب الأسد.
(2) الصايوانات: مفرد صيوان - كلمة فارسية تعني القاء والخيمة.
(3) سيرة الناصر صلاح الدين ص 88.

أتباعه ورعيته وجنده، وإنما تعدى ذلك إلى الأعداء الذين كانوا يحاربونه ويحاربهم (1)، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

سابعاً : محافظته على أسباب المروءة :

فالمروءة هي جِماع مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وكمال الرُّجولة، فهي تبعث على إجلال صاحبها، وامتلاء الأعين بمهابته وحقيقة المروءة قوة للنفس، مبدأ لصدور الأفعال الجميلة عنها، المستتبعة للمدح شرعاً، وعقلاً وعُرْفا (2)، وقال ابن القيم: وحقيقة المروءة: تجنُّبُ للدّنايا والرَّذائل من الأقوال، والأخلاق، والأعمال فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه، ولينه، واجتناء الثّمار منه بسهولة ويسر، ومروءة الخلق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض، ومروءة المال: الإصابة ببذله في مواقعه المحمودة عقلاً، وعُرفاً، وشرعاً، ومروءة الجاه: بذله للمُحتاج إليه. ومروءة الإحسان: تعجيله، وتيسيره وتوقيره وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه، فهذه مُرُوءَة البذل. وأما مروءةُ الترك: فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة، والمماراة (3).

قال الشاعر:

إنِي لَتُطربُنِي الخِلاَلُ (6) كريمة ::: طرب الغريب بأوبه وتلاق
وتَهُزُّني ذِكرى المروءةِ والنَّدى ::: بين الشمائل هِزَّة المشتاق (4)

ولقد كان السلطان صلاح الدين كثير المروءة، نديَّ الوجه، كثير الحياء، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده، وما يخاطبه في شيء إلا وينجزه، وكان يكرم الوافد عليه، وإن كان كافراً، يقول القاضي ابن شداد: ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صَيْدا بالنَّاصرة، فاحترمه وأكرمه، وأكل معه الطعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام فذكر له طرفاً من محاسنه وحثَّه عليه، وكان يُكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمَّن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه، ولقد مّر بنا سنة أربع وثمانين وخمسمائة رجل جمع بين العلم والتصّوف وكان من ذوي الاقتدار، وكان مشتغلاً بالعلم، وحجّ ووصل زائراً لبيت الله المقدس. ولما قضى

(1) صلاح الدين الأيوبي، علوان ص 149.
(2) التعريفات للجُرجاني ص 111.
(3) تهذيب مدارج السالكين (2/697 - 699)
(6) الخلال: جمع خلَّة وهي الخَصْلة والصّفة.
(4) ديوان المروءة لأحَّمد بركات، الأخلاق بين الطبع والتطبع ص 196

لبُانته منه، ورأى آثار السُّلطان فيه، وقع لـه زيارته، فوصل إلينا في العسكر المنصور، وما أحسست بـه إلا وقد دخل عليّ في الخيمة، فلقيتُه ورحبتُ بـه، وسألته عن سبب وصوله، فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السُّلطان لما رأى من الآثار الحميدة الجميلة فعرَّفت السُّلطان تلك الليلة وصول هذا الرّجل، فاستحضره، وروى عنه حديثاً، وشكره عن الإسلام وحثّه على الخير، ثم انصرفنا، وبات عندي في الخيمة، فلّما صلّينا الصبح أخذ يودّعني فقّبحت لـه المسير بدون وداع السُّلطان، فلم يلتفت ولم يَلوِ على ذلك. وقال: قضيتُ حاجتي منه، ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته، وانصرف من ساعته، ومضى على ذلك ليالٍ، فسأل السُّلطان عنه، فأخبرته بفعله، فظهر عليه آثار التعّتب، كيف لم أخبره برواحه، وقال: وكيف يطرقنا مثل هذا الرّجل وينصرف عنا من غير إحسان يمُّسه منا؟ وشدد النكير علي في ذلك، فما وجدت بُدّاً من أن أكتب كتاباً إلى محي الدين - قاضي دمشق - كلفته فيه السؤال عن حال الرّجل، وإيصال رقعة كتبتها إليه طيّ كتابي، وأخبرته فيها بإنكار السُّلطان رَوَاحه من غير اجتماعه به وحسنَّتُ لـه فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك، فما أحسست به إلا وقد عاد إليّ، فكتبت رقعة وأعلمته بذلك، فكتب إلي يقول: تحضره معك ففعلت ذلك، فرحب به وانبسط معه واستوحش لـه، وأمسكه أياماً، ثم خلع عليه خلعة حسنة، وأعطاه مركوباً لائقاً وثياباً كثيرة، يحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه[1].

قال ابن شداد: ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي وقد هابه، بحيث ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع، فقال لـه الترجمان: من أي شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي لـه وحضوري بين يديه، أيقنت أني ما أرى إلا الخير، فرق لـه، ومَّن عليه، وأطلقه[2]. ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج وقد وصل بعض اليَزكيَّة [3]، ومعه امرأة شديدة التحرُّق، كثيرة البُكاء، متواترة الدَّقّ على صدرها، فقال اليَزَكي: إنّ هذه خرجت من عند الفرنج، وسألت الحضور بين يديك، وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها عن قضّيتها، فقالت: إن اللُّصوص المسلمين دخلوا البارحة إلى خيمتي، وسرقوا ابنتي، وبتُّ البارحة أستغيث إلى بكرة النهار، فقيل لي: الملك هو رحيم. ونحن نخُرجك إليه تطلبين ابنتك، فأخرجوني، وما

(1) سيرة الناصر صلاح الدين ص 91.
(2) المصدر نفسه ص 91.
(3) طلائع الجيش.

أعرف ابنتي إلا منك فرّقَّ لها، ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب إلى سُوق العسكر، يسأل عن الصغيرة: من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما كان إلا أن وقع نظرها عليهما، فخَّرت إلى الأرض تمّرر وجهها في التراب، والناس يبكون على ما نالها، وترفع طرفها إلى السماء، ولا نعلم ما تقول: فُسلّمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم [1].

ولقد دخل عليه البْرَنْس أرناط - صاحب الكَرَكَ مع ملك الإفرنج بالسّاحل لما أسرهما في وقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، والواقعة مشهوره تجيء مشروحة في موضعها - إن شاء الله تعالى - وكان قد أمر بإحضارها، وكان هذا أرناط اللعين كافراً لعيناً جبّاراً شديداً، وكان قد اجتازت به قافلة من مصر، حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة، فغدرها، وأخذها، ونكّل بهم، وعذَّبهم، وأسكنهم المطامير والحُبوس الحرجة، وذكروه بحديث الهدنة، فقال: قولوا لمحمّدكم يخلّصكم، فلما بلغه - رحمه الله - ذلك عنه، نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه، فلما مكّن الله منه في ذلك اليوم، قوي عزمه على قتله - وفاءً بنذره - فأحضره مع الملك، فشكا الملك العطش، فأحضر له قدحاً من شراب، فشرب منه، ثم ناوله أرْنَاط، فقال السُّلطان للترجمان: قل للملك: أنت الذي سقيته، وأما أنا فما أسقيه من شرابي، وأطعمه من طعامي. فقال رحمه الله - أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لا أؤذيه. ثم ضرب عنقه بيده وفاءً بنذره وأخذ عكّا، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير، وأعطى كلاً منهم نفقة توصله إلى بلده وأهله [2].

ويروى القاضي ابن شداد هذه القصة التي تنبئ عن تسامحه الكبير ومروءته النادرة، يقول ابن شداد: لما مرض الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد - أكبر خصوم صلاح الدين - بعث إليه صلاح الدين ورقَّه عنه بأن أرسل إليه الفواكه والثلج، وكان الصليبيون يعجبون من هذا التسامح الكريم الصادر عن أعدائهم من المسلمين نحوهم [3]. لقد كان صلاح الدين حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طيّب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه مالا يسمع من غيره، وكان حسن الخُلق يسأل

(1) سيرة الناصر صلاح الدين ص 92.
(2) المصدر نفسه 93.
(3) صلاح الدين الأيوبي، علوان ص 151.

الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلبات أحواله، وكان طاهر المجلس، لا يُذكر بين يديه أحد إلا بالخير، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير، طاهر اللسان، قال ابن شداد: فما رأيته ولع بشتم قط؛ وطاهر القلم، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط [1] وكان حسن العهد والوفاء، فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفيه، وجبر قلبه، وأعطاه خبز مخلفة وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمّه إليه، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته، وسلّمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان ما يرى شيخاً إلا ويرقُّ له ويعطيه ويُحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله [2].

ثامناً: صبره واحتسابه:

الصبر سيد الأخلاق، ورفيق الدَّرب والطريق إلى الإمامة في الدّين، والفوز العظيم، وما من خُلقُ من الأخلاق الفاضلة إلاَّ وهو يرجع إلى الصبَّر، فالصبر أساس الأخلاق الحميدة، وبذر الخير، وجماع الأمر وأصل كلمة الصَّبر هي المنع والحسن، فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكيّ، والجوارح عن لطم الخدود، وشقّ الجيوب وحقيقة الصبَّر، وخُلقٌ فاضل من أخلاق النفس يُمتنع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها [3]، وقيل: الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب [4]، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبَّر في كتابه العزيز في نيّف وتسعين موطناً تدل على وجوبه، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبَّر، وجعلها ثمرة له، وجمع للصابرين بين أمور يجمعها لغيرهم قال تعالى:**{أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}** (البقرة، آية: 157) وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أيُّ الناس أشُّد بلاءً؟ قال: **«الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل يُبتلى العبد على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلْباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّة ابتليَ على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»** [5].

وقال الشاعر:

---

(1) سيرة الناصر صلاح الدين ص 93.
(2) المصدر نفسه ص 93، 94.
(3) الأخلاق بين الطبع والتطبع ص 197.
(4) المصدر نفسه ص 197.
(5) صحيح الجامع للألباني (992/1) السلسلة الصحيحة رقم 143

اصـــبر قلـــيلاً وكـــن بـــالله معتصـــماً ::: لا تعجلـــن، فـــإن العجـــز بالعجـــل
الصـــبر مثـــلُ اسمـــه في كـــل نائبـــة ::: لكن عواقبـــه أحلـــى مـــن العَسَـــلِ [1]

وكان صلاح الدين رحمه الله صابراً على مُرّ العيش وخشونته، مع القدرة التامة على غير ذلك، وكان مثلاً رائعاً في الصبر والاحتساب في ميادين الجهاد، وتلقى الصدمات، والمصائب، يقول القاضي ابن شداد: ولقد رأيته، بمرج عكّا، وهو على غاية من مرض اعتراضه بسبب كثرة دمَاميل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئاً على جانبه إذا كان في الخيمة، وامتنع من مدّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يُفَرّق على الناس وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو، وقد رتّب الناس ميمنة وميسرة وقلباً تعبية القتال. وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شّدة الألم وقوّة ضَرَبان الدمامل، وأنا أتعجب من ذلك، فيقول: إذا ركبتُ يزول عني ألمها حتى أنزل، وهذه عناية ربانية. ولقد مَرض - رحمه الله - ونحن على الخرّوبة وكان قد تأخر عن تلّ الحَجَل بسبب مرضه، فبلغ ذلك الفرنج، فخرجوا طمعاً في أن ينالوا من المسلمين شيئاً - بسبب مرضه، رحمه الله، وهي نوبة النهر، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التلّ، فأمر هو - رحمه الله - بالثَّقل حتى تجهز للرحيل، والتأخر إلى جهة النّاصرة، وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرضاً أيضاً، فأذن له، حتى يتأخر مع الثَّقل، وأقام هو، ثم رحل العدوّ في اليوم الثاني يطلبنا، فركب على مَضَض، ورَتّب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب، وجعل طرف الميمنة الملك العادل، وطرف الميسرة تقي الدين، وجعل ولده الملك الظاهر في القلب والملك الأفضل، ونزل هو وراء القوم، وأوّل ما نزل من التلّ أحضر بين يديه إفرنجي قد أسر من القوم، فأمر بضرب عنقه، فضُرب عنقه بين يديه، بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح، ويتظلّل بمنديل على رأسه من شّدة وقع الشمس عليه، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً، ولم يزل كذلك حتى نزل العدّو برأس النهر، ونزل هو قبالتهم على تلّ مطلّ عليهم إلى أن دخل الليل، ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت إلى محال المصابرة، وأن يبيتوا تحت السّلاح، وتأخر هو ونحن في خدمته، إلى قمة الجبل، فضربت له خيمة لطيفة، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله، وهو ينام تارة ويستيقظ

(1) الأخلاق بين الطبع والتطبع ص 197.

أخرى، وأحدقت بالعدو، ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر، وضايقه المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتساباً: الملك الظاهر والملك الأفضل والملك الظافر، وجميع من حضر منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظن الرائي لها عن بُعد أن تحتها خَلْقاً عظيماً، وليس تحتها إلا واحد يُعّد بخلق عظيم، ولم يزل العدو سائراً والقتل يعمل فيهم، وكلما قتل منهم شخص دفنوه، وكلما جُرح منهم رجل حملوه، حتى لا يبقى بعدهم مَنْ يُعلم قتله وجرحه، وهم سائرون ونحن نشاهدهم، حتى اشتّد بهم الأمر، ونزلوا عند الجسر، وكان الإفرنج متى ما نزلوا إلى الأرض أيس المسلمون من بلوغ غرض منهم؛ لأنهم يحتمون في حالة النزول حماية عظيمة، وبقي في موضعه، والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدوّ إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية، فبتنا على ما بتنا عليه إلى الصباح من مضايقة العدوّ ورحل العدّو، وسار على مضض من القتل والقتال، حتى دنا إلى خيامه، وخرج إليه منها من أنجده حتى وصلوا إلى خيامهم، فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب، إلى أي غاية بلغ هذا الرجل [1].

قال القاضي ابن شداد: ولقد رأيته - وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسّمى إسماعيل، فوقف على الكتاب ولم يُعرّف أحداً ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه [2]، ولقد رأيته ليلة على صَفَد وهو يحاصرها، وقد قال: لا ننام الليلة حتى تُنصب لنا خمسة مناجيق [3]، ورتَّب لكل منجنيق قوماً يتولّون نصبه، وكنا طول الليل في خدمته - قَدس الله روحه - في ألدّ فكاهة وأرغد عيشة، والرُّسُل تتواصل فتخبره بأن قد نُصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن المنجنيق الفلاني كذا، حتى أتى الصباح وقد فُرغ منها، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها، وكانت أطول الليالي وأشّدها برداً ومطراً، ولقد رأيته وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدين عمر - ابن أخيه - ونحن في مقابلة الإفرنج جريدة على الرَّملة، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام والناس تقف على ظهر إلى الصباح ونحن بالرّملة [4]، والعدو بيازور، بيننا وبينها شوط فرس لا غير، فأحضر الملك العادل، ولعم الدّين

(1) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ص 82.
(2) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ص 83.
(3) آلة من خشب له دقتان قائمتان بينهما سهم طويل.
(4) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ص 84.

سُليمان بن جندر وسابق الدّين بن الدّاية، وعز الدين المقدَّم؛ وأمر بالناس فطُردوا من قريب من الخيمة، بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سَهْم، ثم أظهر الكتاب، ووقف عليه، وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا، من غير أن نعلم السبب ثم قال - رحمه الله - والعبرة تخنقه: توفي تقي الدّين[1]، فاشتّد بكاؤه وبكاء الجماعة، ثم عدت إلى نفسي فقلت: استغفروا الله تعالى من هذه الحالة، وانظروا أين أنتم، فيم أنتم، وأعرضوا عما سواه [2]. فقال - رحمه الله -: نعم، أستغفر الله. وأخذ يكررها، ثم قال: لا يعلم بهذا أحد، واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه، ثم استحضر الطعام وحضر الناس، ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدوّ إلى يافا، وعدنا نحن إلى النّطرون، وهو مقر ثقلنا [3].

تاسعاً: الوفاء:

والوفاء من الأوصاف العلية والشيم السنية، أمر الله تعالى الخلق به ومدحهم على فعله قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}** (المائدة، آية: 1) وقال تعالى:**{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً }** (الإنسان، آية: 7). قال الشاعر:

إذا قلت في شيء نعم فأتمه ::: فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا تسترح وترح بها ::: لئلا يقول الناس إنك كاذب [4]

وكان صلاح الدين الأيوبي مضرب المثل في الوفاء بالعهود، وكان إذا عقد الصلح التزم به، وإذ عاهد وفىّ بعهوده، وقد ذكر ابن واصل عن بطرك القدس حين خرج بعد استعادة صلاح الدين للمدينة ومعه من أموال البيع مالا يعلمه إلا الله تعالى كما يقول ابن واصل، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح، وحين قيل له خذ ما معه لتقوي به المسلمين، أجاب بقوله: لا أغدر به، ولم يأخذ منه إلا ما كان قد فرضه على كل رجل عادي من الفرنج وهو مبلغ عشرة دنانير، ثم سيّر مع البطرك والذين خرجوا معه من المدينة من يحميهم ويوصلهم إلى مدينة صور، التي أصبحت معقل الفرنج ومكان تجمعهم بعد هزيمتهم في حطين واستعادة ما كانوا يسيطرون عليه من مدن ومواقع في بلاد الشام[5].

عاشراً: التواضع:

---

(1) المصدر نفسه ص 84.
(2) سير السلطان الناصر صلاح الدين ص 84.
(3) المصدر نفسه ص 84.
(4) النهج المسلوك في سياسة الملوك ص 117.
(5) مفرج الكروب (211/2) حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها ص 46.

صفة من صفات عباد الرحمن قال الله تبارك وتعالى:{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنـاً} (الفرقان، آية: 63) والتواضع علامة حب الله للعبد، كما قال الله سبحانه وتعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (المائدة، 54) قال ابن كثير: هذه صفات المؤمنين الكُمَّل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليّه، متعزّزاً على خصمه[1]، وقد اتصف السلطان صلاح الدين الأيوبي بصفة التواضع، وكان قريباً من الناس، كثير الاحتمال، والمداراة، لم يتكبَّر على أحد من أصحابه، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوبه وأصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان بساطه يُداس عند التزاحم عليه لعرض القصص، وهو لا يتأثر بذلك، ويذكر ابن شداد أنه نفرت بغلته يوماً من الجمال وهو راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يبتسم [2].

وكان صلاح الدين قدوة حسنة لأتباعه، يبدأ العمل بنفسه ثم يدعو غيره للاقتداء به، ويتُم تصرفه هذا عن إدراك سليم، وما ذلك إلا لأنه فَهِمَ أن المكان الأسمي في أي مجتمع إنما هو للعاملين والعمل هو أسَاس التقييم للأفراد والجماعات، وهو محور كل العلاقات الاجتماعية، وبسبب هذا فقد أحبه الناس العامة منهم والخاصة، وتفانوا في خدمته والتعاطف معه وكانت هذه المحبة هي سر نجاحه، وقوته، لأن ما كسبه غيره باستعمال أساليب القسوة والترهيب، حصل عليه هو بالمحبة والتعاطف والسلوك السليم [3] وكان أصحابه، يتشبَّهون به، ويتسابقون إلى المعروف، كما قال تعالى:{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ} (سورة الحجر، آية: 47)، فعندما قرَّر بناء سور القدس وحفر خندقه، تولى ذلك بنفسه، ونقل الأحجار على عاتقه، وتأسى به جميع الناس الفقهاء والأغنياء والأقرباء والضعفاء، فاحترمه الناس من أجل ذلك، وفي عام 587هـ/1191م، قدم معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم، إلى السلطان صلاح الدين، فأكرمه وزوَّجه بابنة أخيه العادل، ولما ركب صلاح الدين ليودعه ترجَّل معز الدين له، فترجَّل صلاح الدين، ولما ركب السلطان، عضده معز الدين وأركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين صاحب الموصل مع السلطان آنذاك، فسَّوى ثيابه أيضاً، فقال بعض الحاضرين هامساً وهو يتعجب

(1) تفسير ابن كثير (73/2).
(2) النوادر السلطانية ص 63.
(3) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 225.

من هذا الاحترام الشديد لصلاح الدين: ما تُبالي يا ابن أيوب أي موتة تموت، يُركّبك ملك سلجوقي، وابن أتابك زنكي [1] فهذا شيء موجز عن الرصيد الخلقي لمؤسس الدولة الأيوبية.

وقد اتصف صلاح الدين بمجموعة من الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة، من علو الهمة، والحزم، والإدارة القوية، والقدرة على حل المشكلات، وعلى التخطيط والتوجيه والتنظيم والمراقبة، وغير ذلك من الصفات، وبسبب ما أودع الله فيه من الصفات الربانية استطاع أن يوحد الشام والموصل ومصر، وغيرها من البلدان تحت زعامته وأن يحقق الانتصار الكبير على الصليبيين في حطين وأن يسترد بيت المقدس، فقد توجب جهوده الفذة بنتائج كبيرة على مستوى الفرد، والمجتمع، والدولة وأصبح مشروعه المقاوم للتغلغل الباطني والغزو الصليبي مناراً للعاملين على مجد الإسلام وقد كشف صلاح الدين يوماً عن مصدر قوته في حديثه مع ابنه الملك الظاهر غازي، وهو في بيت المقدس بعد أن أجرى الصلح مع ريتشارد قلب الأسد، وقبل أن يأذن له بالذهاب إلى حلب إذ أوصاه قائلاً: أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذّرك من الدماء والدخول فيها والتقلُّد لها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يُبقي أحداً، واحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يغفر إلا برضاهم وما بينك وبين الله يغفره بتوبتك إليه، فإنه كريم [2].

* * * * *

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 225.
(2) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص 352، 353.